

المبين

- السيد محمد سليمان أشرف البهاري¹

ترجمة من الأردوية: د. ضياء القمر آدم علي التيمي²

﴿4﴾

الباب الخامس

في فلسفة تطور اللسان

إن كمال تطور اللغة العربية الذي لا يمكن تخيل أي رتبة بعده الاشتقاق الكبير. وقبل أن أعرضه أرى من المناسب أن أتطرق - باختصار - إلى المراحل اللغوية التي ساقها اللغويون في كتبهم؛ ليتضح أنّ الاشتقاق الكبير هو الحد النهائي لتطور اللغة العربية الذي لا تستطيع قوة الخيال - بعد وصولها إليه - أن توجي بما يجب القيام به لأجل تطوير هذه اللغة كالأل.

يطبق أغلب علماء الألسنة في هذا العصر على أنّ أساس اللغة يقوم على مبدأ الحكاية الصوتية؛ فيذكرون أنّ الإنسان يتكلمون بما يسمعون من حولهم منذ أن ولدوا. لغة إيران فارسية، ولغة العرب عربية، ولغة إنجلترا إنجليزية، ولغة فرنسا فرنسية؛ فكل مولود بشري ينطق بما يسمعه من أهل تلك البلدة؛ فطفل هندي - لو ولد في بيئة عربية، أو أنه وصل إليها بعد أن ولد قبل أن يشبّ، فمع أنّ أباه وأمه هندية، ولغة أسرته هندية

¹ الرئيس الأسبق لقسم العلوم الإسلامية بجامعة علي كره (الهند)

² أستاذ اللغة العربية وآدابها، بكلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، بالجامعة المحمدية منصوره، مالاغون، مهاراشترا، الهند.

منذ قرون طويلة- يحكي لما يحيطه حوله؛ إذ إنه يسمع العربية، فتكون لغته في هذه البيئة عربية، وتكون لغته الأم فيها لغة أجنبية؛ كما أن الهندية أجنبية لعربي أصيل.

والدليل الثاني: أنه لو تربى مولود بشري في مكان ينأى عن بشر، ولا يتوافر فيه إلا الطيور والوحوش فإنه لا يقدر على النطق ولو بلغ الحلم، حتى وإن بلغ الكهول، وإنما ينطق بالأصوات التي أنس بها. ويختلف تصعد أصواته وتسفلها بحسب اختلاف أحاسيسه ومشاعره، وتناهى أصواته عما يشبه الأصوات الإنسانية، بل هو يحكي لما سمعه من أصوات حوله.

والدليل الثالث: خذ لغة بلد تنطق حالياً، ثم قارن بين هذه وتلك التي كانت تنطق قبل مئة سنة في هذه البلدة نفسها ترى بوناً كبيراً فيما بين ماضيها وحاضرها، فلا تكون لغة اليوم لغة النشء الآتي؛ فكلمة ينقضي قرن يحدث في اللغة تغييرات تجعل إحداها أجنبية لأخرهما.

ملخص الدلائل الثلاثة: الأدلة الثلاثة المذكورة- فيما أعلاها- وإن كانت مبنية على أساس واحد، ولكنها تشير إلى أمر آخر- أيضاً؛ ملخصه أن أصوات الإنسان- في أول أمرها- لم تكن إلا محكية لأصداء الكون، ثم بدأ المحكي يتضح تدريجياً أكثر من الأصل، حتى وصل إلى درجة لقبت فيها الأصوات باللغة. ومن ثم، تبدأ مرحلة التطور من حيث كونها لغة. ومن الواقع أنه قد مضت على كون تلك الأصوات لغة قرون عديدة لا يمكننا أن نقدّر لها، وكذلك تقدير الأزمنة والمراحل التي مرت بها اللغة في سبيل تطورها خارج عن القياس.

ولنفهم تلك الأزمنة ونفهمها للآخرين، يمكننا أن نقسمها في أربعة أطوار:

(1) الطور الطبيعي

(2) الطور التقليدي

(3) الطور الصوتي

(4) الطور النطقي

بداية الطور الطبيعي: عاش الإنسان أول طور لحياتهم في الدنيا، كما يعيش الحيوان غير العاقل؛ فلم يكن لديهم لباس يلبسونه، ولا غذاء يأكلونه، ولا بيت يسكنونه، ولا آلات حرب يدافعون بها أعداءهم، ولا لغة ينطقون بها؛ يأكلون فواكه الأشجار أو قشرها عندما يجوعون، وأحياناً يرمون حيواناً بالحجر ويشبعون. يختفون في الكواهف ويقضون ليالهم، فإن وجدوا غاراً تحت الشجرة دخلوها وناموا فيها. يخرجون أصواتاً عند اجتماع المشاعر والأحاسيس تشبه غوغاء وضوضاء لا تحمل معنى ولا مدلولاً.

حاجتهم الماسة للاجتماع: لما رأى الإنسان الحيوانات غير الأليفة تهاجم على أبناء جنسهم أحسوا بالمخاطر على حياتهم. الغيران والكهوف وإن كانت مأوى لهم، غير أنهم في أشد حاجة منها إلى ما يقيمهم من حشرات الأرض المؤذية والسباع؛ وهذه هي الحاجة التي قد دفعتهم إلى أن يعيشوا حياة اجتماعية؛ ليكون بعضهم مساعداً لبعض عندما اعترضتهم المخاطر، وضرورة المساعدة هذه هي التي أحدثت فكرة تقوية الضعف الإفرادي باجتماع القوة، ثم بدأ عُمران الإنسان يزداد إلى صورة اجتماعية. ومن ثمّ كلّما أراد الإنسان أن يعمروا في مكانٍ ما أحسوا بضرورة الوجود لأبناء جنسهم.

الاجتماع والحاجة إلى التفاهم: ولكن الحياة الاجتماعية تتطلب أن تخلق وسائل يمكن من خلالها الوقوف على ما في خواطر بعضهم لبعض، واستفادة بعضهم من بعض، والذي لأجله حوّلت الحياة الانفرادية إلى الحياة الاجتماعية وأثرت عليها.

وعلى قدر ازدياد متطلبات الحياة الاجتماعية هذه، ازدادت الكيفيات الاضطرابية في طبائع الإنسان؛ فأول واسطة ظهرت للتفاهم الإشارة، ثم اللفظ، ثم الجملة، ثم الكلام.

جمود الحيوان وتطوره: انظر إلى الحيوانات، كيف تعرب عما في خواطرها بواسطة

تغييرها لأسلوبها في النطق بالأصوات، ولكن أصواتها هذه غير صالحة لأن تصل إلى درجة الكلمة، وأيضاً أنّ أعمالها وأفعالها وحركاتها الجسمية مازالت تلتزم بحالة واحدة دون أن يعتريها غيرها من أحوالٍ أخرى متنوعة؛ فلذا لم تكن إشارات أعضائها وحركاتها أكثر نفعاً وفائدةً، ولم توسع أصواتها مجال الفهم والإفهام. ولذا فهي - مع اجتماعها - لم تزل أضعف بالنسبة لمن كان ضعيفاً، ولم تقدر أي إضافة إلى وسيلة التفاهم التي أتت بها معها.

ولكن الإنسان الذين يتميزون بقوة التقليد والإبداع قاموا بواسطة هاتين الميزتين بأعمال جليّة، تأبى ثقافتهم ومعاشرتهم ومحدثتهم بالنظر إليها أنّ مرّ بهم زمنٌ بمثل هذا القدر من الانخفاض والتخلف.

طور التقليد: إنّ الإنسان - في طورهم البدائي - كانوا تعلموا طريقة الحكاية، بعد أنّ سمعوا أصوات وأصداء الحيوانات والموجودات الأخرى حولهم، ولكن الاجتماع زوّدهم بدرسٍ للإشارة إضافي.

أقسام الإشارة: تنقسم الإشارة إلى قسمين: اختيارية واضطرابية.

إنّ الفرح والحزن والراحة والكرب وغيره كصفات تعدّ من أنواع حركات الأعضاء الاضطرابية؛ إذ يعتري الوجه تغيير عند ظهور هذه الكيفيات؛ فلها كانت هذه الكيفيات عارية عن الحكاية تلجأ إلى تلك الحكاية وتعبر عنها.

مثال البكم: الإشارة الاختيارية هي أن تعرب صورة المحكي عنه بواسطة الإشارة، كما أنّ الأبكم إذا أراد أن يبين شيئاً يكون صورة ما يريد الإشارة إليها من خلال الإشارة. فمثلاً يشير بالبرقعة إلى المرأة، ويشير بالشارب واللحية إلى الرجل، ولكن مد الوجه عند الغضب، والعبوس على الجبهة؛ هذه كلها إشارة اضطرابية، فإذا أراد الأبكم أن يحكيها يعبس وجهه متعمداً.

وكان الإنسان- قبل أن توضع الألفاظ- بكاءً، ولذا كانوا يقومون بجميع أعمالهم بالإشارات كالأبكم، وهذه الإشارات الاختيارية والاضطرارية كانتا تعبران عما في خاطرهم. والإشارة- وإن كانت في البداية- ضئيلة ويسيرة، ولكنها بعد أن مرَّ زمنٌ عليها شاهدت في سيرها تطوراً جعل جميع الأخيلة والأحاسيس تعبر من خلال الإشارة؛ من دون أية معاناة وجهد.

تقصير الإشارة: ظهور الإشارة في حيز الوجود، ثم ازدهارها سهل الإعراب عما في انخراط، ولكن المشكلة لديها أنها في حاجة إلى المشاهدة؛ فما أمكنت محادثة إن حدث ظلام الليل أو اعترض له الحجاب. ولذا أراد الإنسان أن يتقدموا ليتمكنوا من أن يعرضوا ما ادعوا للآخرين فلو لم يكن هذا اضطرارياً لم تكن هناك إلا إشارات، ولم يكن للألفاظ واللغات مجال.

التفاهم الصوتي: فلما لم تتمكن الإشارات- مع وفورها من حل المشكلة في باب التفاهم- بدأ الناس يستخدمون محاكاة لما كانوا يسمعون من أصوات الطبيعة أو أصوات غيرها، مثل صوت آه؛ فإنه يخرج من الفم من غير قصد، ودافعه ليس إلا الطبيعة، ثم بدأ الناس استخدام هذا الصوت في كل مكان يأباه قلبه أو يكرهه، وكذلك الأصوات التي يخرجها الحيوان في أحوالها المختلفة جعلوا حكاية أصواتها معبرة عن تلك الحال ودالة عليها.

فالكلب- مثلاً- عندما يرى مربيه يخرج صوتاً لا يقال له نبأح ولا لهاث، فقرر الإنسان إخراج مثل هذا الصوت لمن يقدم وقدمه دأع لفرحه وسروره. فلو أخرج أحد مثل هذا الصوت ظن الآخرون أنه قد قابل شخصاً أوجب له الفرح والسرور. وكذلك عندما يرى الكلب شخصاً أجنبياً أو يرى لصاً يبدأ ينبج باستمرار يفهم منه أنه جاء من يكره مجيئه؛ فالإنسان- أيضاً- قد اختاروا هذا الأسلوب من الصوت؛ ليخبروا به عن الأعداء والحشرات المؤذية.

الغرض أنه لم يزل اختراع سلسلة حكاية الأصوات معبراً عما في الضمير كذلك. وهذا الصوت كان يعبر عن المشاعر والأحاسيس أحياناً، وكان يدلّ على الموجودات التي يكون حكاية عنها أحياناً أخرى. فمثلاً إذا كان المقصود كلباً فكفى للتعبير عنه النباح، ولكنه حتى الآن لم تستغن الإفادة من الإشارات؛ ففي بعض الأحيان، كانت تستخدم الحكايات الصوتية، وفي أحيان أخرى تستخدم الإشارات؛ فكما أنّ ذات الأبكم نموذج للتكلم بالإشارة، فكذلك ذكرى الحكايات الصوتية تتوافر في كلّ مولود جديد. ونظراً إلى هذا يمكننا تصويب هذا القياس.

إنّ الطفل في بداية طوره البدائي يعبر عن الأشياء؛ إما بالإشارة أو بالحكاية عن أصواتها. من يستطيع أن يقول- بعد أن يرى الحضارة الحالية للإنسان وزخارفها- بأنه قد مرّ بالإنسان زمنٌ كان فيه مجموع عيشهم موصولاً بقطعة من آدم؛ في النهار كانت لباساً يسترون بها عوراتهم، وفي الليل فراشاً، وفي الشتاء لحافاً، وفي الحرب درعاً، وفي المطر مظلة، ولحمل الأشياء آنية، ولإغلاق فتحات الكهوف بآباً.

ولكن- في الواقع- أنه قد مرّ بالإنسان زمنٌ يقضون فيه حاجاتهم الحياتية بشيء واحد، ثم توافر لكل حاجة أداة ووسيلة خصّت بها.

فكذلك الشأن باللغة الإنسانية؛ في البدء، سُمع صوت، ثم مازال حكي لمدة، ثم بدأت نعومة آلات الصوت تصيقل تلك الحكاية وتجليها، حتى فيما بعد تكوّن الصوت لفظاً. وفي تلك الآونة، كانت تدلّ كلمة واحدة على عدة معانٍ، وهذه كانت اسماً وفعلاً ومصدرًا ومشتقاً واسم ظرف واسم الآلة، وكانت تطلق على مدلول واحد وعلى ما فهم منه من المعاني أو على ما يتعلق به أيضاً.

نعم، فكما أنّ الحكاية الصوتية- بعد أن مرّت بعدة مراحل- وصلت إلى درجة اللفظة، فكذلك اللفظة فهي- بعد أن تطورت وقطعت سوطاً كبيراً- وصلت إلى هذه

الدرجة؛ الاسم والفعل والحرف.

وفي هذا الزمان المتطور؛ يتوافر في الجبال والغاب فريقٌ من الناس، لو اختلطوا بالذين يعدون أنفسهم مثقفين يأبى بعضهم عدَّ بعضهم من قبيلهم. فعندما نراهم عاشين فيها يتجلى لنا صورة معاشرتهم البدائية التي لا توحى بثقافة وحضارة- على أقلها. وكذلك يتوافر في بعض أنحاء العالم عُمرانٌ يدلّ دلالة كافية على أنّ اللغة والتعبير يلتزمان بالقوانين التي تعمل في جميع الفروع للحضارة، بل وتعمل في بناء شخصيات الإنسان أنفسهم.

إنّ من السُّكان الجنوبيين بأمريكا الوسطى والمواطنين في بعض قطاعات أستراليا قبل آونة وقطان بعض الأكاف في أفريقيا أناساً تصدّق دراسة لغتهم أصول التطور وقوانينه؛ يتوافر لدى سكان هذه المناطق مجموعة من الألفاظ، اعترافها نقص؛ فهي لا تتمكن من تأدية معناها إلا بإشارات مختلفة من اليد والرجل والعين وغيرها، وفي بعض الأحيان يحصل الناطقون بها على معانيها المفهومة من خلال الزيادة والنقص؛ في تصعد الألفاظ والكلمات وتسفلها.

طور النطق: من الممكن أنّ صاحب نظرة وضعية يطالع المباحث المذكورة فيصل إلى أنّ طفلاً عندما ينشأ فيه قوة النطق يقدر خلال أشهر على النطق بتلك الألفاظ، ثمّ خلال عدة سنوات، يبدأ ينطق بالجملة المركبة من الفعل والفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر، فكذلك لما أحسّت الطبقة الأولى من الإنسان بسماع صوت أحوجتهم متطلبات الحاجات المتتابعة لمدة سنوات إلى وضع الألفاظ. ولذا يمكننا أن نقول إنّ الطبقة الأولى هي التي وفرت إلى آخر عمرها موادّ للألفاظ صارت للنشء التالي ثروة وذخيرة، ثم تقدّمت وتطوّرت، حتى وصلت إلى عدة أجيال، وتبدت- في النهاية- لغة لهم كاملة. ولكن المهرة في أصول التطور والازدهار للغة يعرفون معرفة تامة بأنّ الطبقة الأولى لم يتسنّ لها فرصة لأن تفهم الأصوات الطبيعية والخارجية بأحسن وجه؛ فضلاً عن

أن يحاكو تلك الأصوات، ويضعوا معاني لتلك المحاكات!
لا يُقدَّر الزمن الذي وصل فيه السماع إلى الحكاية، والحكاية الصوتية إلى اللفظ أيَّ تقديرٍ، ثمَّ حدوث القلب والإبدال والنَّحت وإجراء الترخيم فيه ثمَّ وجود مجموعة كبيرة من هذا القبيل، ثمَّ إيصال الألفاظ إلى مرتبة الاسم والفعل والحرف؛ هذه كلها تتطلب أمدًا بعيدًا لا يعدّ، ولا نغالي إذا قلنا إنّ الإنسان قد أوصل النطق إلى هذا المستوى من الكمال خطوة تلو أخرى.

الطور الأول وضع الألفاظ

الطور الثاني وضع الاسم والفعل والحرف والتمييز بين كل منه.

الطور الثالث المشتقات

الطور الرابع وضع أقسام الاشتقاق

الطور الخامس تكوين الجملة بتأليف الكلمات.

الطور السادس اختلاف المعنى باختلاف التركيب.

الطور السابع: وضع الإعراب

آخر ارتقاء للغة ينتهي بالإعراب.

فلو ألقينا النظرة على لغات العالم لوجدنا في العصر الحاضر نموذجاً حياً للتقدم والازدهار خطوة تلو أخرى.

فاللغة التي مرّت بمراحل عديدة تعدّ أكل درجة بالنسبة للغة التي لم تصل إلى هذه الدرجة حتى الآن.

فاللغات التي اعترها نقص من الإعراب تعدّ غير مكتملة، وكذلك اللغات التي يتوافر فيها الإعراب ولكن لا يستفاد من اختلافه الحصول على فوائد معنوية تعدّ غير مكتملة

أيضاً بالنسبة للغات التي يستفاد من اختلاف إعرابه الحصول على فوائد معنوية.
إنّ اللغات الناقصة تأخذ وظيفة الإعراب من الحروف. لا يعنى الإعراب في تلك اللغات بأيّ معنى، وإنما يكون محامياً لنطق الكلمة فحسب. فالمقصود أنه- سواء كان الإعراب موجوداً أو لم يدل هو على معنى- كلاهما يوحى بكون اللغات ناقصة وغير مكتملة، وحول هذه اللغات سيقال: إنها لم تتطور بعد.

نظرة على بحث المستشرقين: إلى هنا بينت بكلمات مختصرة- مع ما يكفي من التوضيح والبيان والتحقيق الذي كان يعتبر الثمرة الطرية اللذيذة لطور الاجتهاد والاكتشاف في الدنيا، وبعد أن تقرأوا الكتب المطولة ستجدون مغزى ما كتبتة ملخصاً.

وإن لم يكن هذا مذهباً جديداً تطرقت إليه عقول الأوربيين بداية؛ لأنّ هذا هو نفس مذهب أبي هاشم المعتزلي الذي ذكر في الصفحات الأولى، ولكن قام العلماء الأوربيون بإحياء هذا المذهب بانتظام وجدوا في تنيته، وجهدهم هذا هو جلّ ما يتباهون ويتبجحون به.

لا أقصد- الآن- ذكر تاريخ اللسان ولا الحقيقة التي تعتبر حجر الأساس في وجود اللغة والتعبير، وليس قصدي كذلك التفريق بين اللغة الرئيسية واللغات الفرعية، ولا ضرورة للتيه في أنقاض بابل ونينوا ولا لإمعان النظر في كتابات المقابر وغيرها، ولا البحث عن العلاقة بين الأصل والفرع، ولا رغبة في وضع الفروع جنباً إلى جنب؛ إذ هذا عمل من يسمي الجهد الذهني والتدبر الفكري للوصول إلى غاية فاسدة بالتحقيق الدقيق والاجتهاد الفذ؛ بناءً على خرافات وافتراضات لا أساس لها، ويود أن يحمد من قبل عقول معطلة بتسميته باسم جميل مثل (علم الآثار).

بل قصدي فقط أنّ اللغة العربية تتقدم على اللغات باتصافها بمعايير اللغة المثالية، دون منازع؛ فهي تمتاز بخصائص وتلتزم بضوابط وقواعد توضح لنا مدى قدمها ورسوخها.

أنا لا أريد إثبات دعوي المذكورة أعلاه بكتابات المقابر أو عبارات التوراة، ولا أريد إثبات جزء من الادعاء بتسمية الخرافة والخيال تاريخاً وتحقيقاً، بل أريد إثباته بعرض اللغة البالغة رقيها وكملها لأقصى حد، وأصولها وقواعدها الثابتة المحكمة بأن اللغة التي ارتقت إلى درجة الكمال دون نظيراتها الا ان لم تحكم قواعدها وضوابطها قد استغرقت قعراً من الزمن لتصل إلى ما هي عليه، فهذا إذا كان كمال اللغة العربية دليلاً على اكتمالها فهذا الكمال شاهد عادل على قدمها أيضاً؛ فالملقصود أنّ اللغة العربية تدل بنفسها على كمالها وقدم اللغة، فلا ضرورة إلى قرينة خارجية... طلوع الشمس دليل على الشمس.

الحواس الظاهرية والباطنية: للإنسان خمس حواس ظاهرية وخمس باطنية، فالبصر والسمع والشم والذوق واللمس حواس ظاهرية؛ وهي ظاهرة لدرجة أنها لا تحتاج إلى ذكر موقعها ولا إلى بيان وظائفها وأعمالها، وكذلك من الواضح أيضاً أنّ قدرات كل حاسة مختلفة، وأن لكل منها مجالاً خاصاً، فإذا تلفت حاسة لا تستطيع حاسة أخرى أن تقوم مقامها وتذكر ما تدركه تلك الحاسة أو تحاول العمل في مجالها. فمثلاً إذا سلبت قوة السمع فلا يقدر ما بقي من الحواس الأربع على سماع الأصوات، ولا تتمكن هذه القوى الإدراكية من الوصول إلى حد المسموعات، والسبب وراء ذلك واحد؛ وهو أنّ كل حاسة محصورة في حواسها.

والحس المشترك والخيال والوهم والحافظة والمتصرفة حواس باطنية، ومن الضروري فهم أعمالها ومجالها بكلمات موجزة.

قسّم الحكماء عقل الإنسان إلى ثلاثة أجزاء وكل جزء سموه بالبطن، ويقال التجويف أيضاً، فالبطن الأول والثالث منها كبير، أما البطن الثاني فهو كالرواق والممر، وقد ثبت بتحقيقاتهم أنّ الجزء الأمامي من البطن الأول هو موقع الحس المشترك، والجزء الخلفي منها محل الخيال، وأنّ قوة الوهم توجد في الجزء الأمامي من البطن الثالث، وفي جزئها الخلفي تكمن الحافظة، والقوة المتصرفة تتعلق بالبطن الأوسط الذي هو

كالرواق، ولأعمالها المتنوعة سميت بثلاثة أسماء: المتصرفة والمتخيلة والمفكرة. وبعد معرفة أسماء الحواس الباطنة ومواقعها ينظر الآن إلى أعمالها ومهامها. الحس المشترك: جميع صور الجزئيات المحسوسة التي تشعر بها الحواس ترسم بالحس المشترك، ولذا سمي باسم ثانٍ وهو لوح النفس. الخيال: هذا مخزن ما يدركه الحس المشترك، فالصور التي ترسم في الحس المشترك يقوم الخيال بحفظها، ونظراً لهذا وقع محله قريباً من الحس المشترك. الوهم: شأن هذه القوة الحسية إدراك المعاني الجزئية، فالصور المحسوسة تختص بالحس المشترك، والمعاني الجزئية تختص بالقوة الوهمية، فالمعاني الجزئية مثل حبّ طفل الشاة لأمه أو عداوة الذئب للشاة؛ فإدراك هذه المعاني الجزئية عمل القوة الوهمية. الحافظة: المعاني الجزئية التي يدركها الوهم تحفظها الحافظة، فعلاقة الحافظة بالوهم علاقة الخيال بالحس المشترك. المتصرفة: التأليف بين محركات الحس المشترك والوهم؛ أي بين الصور المحسوسة والمعاني الجزئية أو الفصل بينهما هو محل هذه الحاسة، ومحلها البطن الأوسط من الدماغ، ومن طبيعتها الحركة الدائمة المستمرة؛ فلا تتوقف عن عملها قط؛ سواء في حالة النوم، أو في حالة اليقظة. وبناء على هذا لا يكون عملها منظماً. المتخيلة: ولكن عندما تستخدمها النفس بواسطة الوهم فينثد تحذف خصائص المحسوسات الجزئية وتجعلها صالحة لأن يدرك العقل الحقيقة الكلية؛ فعند أدائها هذا العمل يسمى بالقوة المتخيلة.

المفكرة: لما تستخدمها النفس بواسطة قوة العاقلة فينثد تلبس هذه القوة الحقيقة الكلية لباس الصورة الجزئية؛ وهذا ليس موضع الشرح والتوضيح وإقامة الحجة والبرهان. وذكر أسماء الحواس الباطنية ووظائفها كان ضرورياً ليرتبط الكلام ببعضه ببعض،

ويكون نفعه أعمّ.

وقت عدم الشعور للإنسان: من الملحوظ في الحواس - ظاهرة كانت أم باطنة - عندما يأتي أوان عملها لا تكون نتيجة عملها من تعلم واكتساب، بل بقعرتها الطبيعية تنتقل من القوة إلى الفعل.

قال الحكماء: إنّ طفل الإنسان - فور ولادته - لا يستطيع استخدام الحس والإدراك، بل يمضي في أيامه الأولى أوان يبدو فيه أنّ حواس الآخرين تعمل، ولكنها - في الحقيقة - لا تعمل بشيء.

عملية الحواس: أولاً تبدأ القوة اللامسة عملها ثم الباصرة، ثم السامعة، ثم الذائقة، وفي النهاية الشامة. إدراك آلات الحواس الباطنة هي الحواس الظاهرة، ولذا لا تعمل الحواس الباطنة عملها بدون الحواس الظاهرة.

فالمقصود أنّ عملية الإحساس والإدراك تبدأ بالترتيب؛ الواحدة تلو الأخرى، فتبدأ من الظاهر حتى تصل إلى الباطن، ومن الصورة إلى المعنى ومن الجزئيات إلى الكليات؛ فهي تتطلب الوقت والفرصة لا التعليم ولا التعلم.